Afro-Asian Journal of Scientific Research (AAJSR)
المجلة الأفروآسيوية للبحث العلمي (AAJSR)

Volume 1, Issue 2, April-June 2023, Page No: 114-122
Website: https://www.aajsr.com

قراءة في كتاب: المجتمع المغربي في القرن 19م (إينولتان 1850- 1912) للدكتور أحمد التوفيق

كريم يوسوفي*
طالب باحث في سلك الدكتوراه، مختبر المغرب والعوالم العربية والإسلامية، جامعة السلطان المولى سليمان، بني ملال، المغرب

Reading in a book: Moroccan Society in the 19th Century AD (Inoltan 1850-1912) by Dr. Ahmed Al-Tawfiq

KARIM YOUSSOUFI *
PhD student, Laboratory of Morocco and the Arab and Islamic worlds, Sultan Moulay Slimane University, Beni-Mellal, Morocco

*Corresponding author	youssoufikarim@gmail.com	*المؤلف المراسل
تاريخ النشر: 2023-04-27	تاريخ القبول: 2023-04-23	تاريخ الاستلام: 2023-03-25

الملخص
تشكل أطروحة الدكتور أحمد التوفيق والمعنونة ب "المجتمع المغربي في القرن 19م، إينولتان 1850-1912" نموذج يحتذى بها بالنسبة للكتابات الأكاديمية في حقل التاريخ بالمغرب. نظرا لأن الباحث خلق طفرة في مجال الكتابة التاريخية التي تهتم بالمجالات المهمشة في التناول التاريخي، علاوة على أن الدراسة وضعت اللبنات الأولى في مجال الاهتمام بالتاريخ الجهوي، القائم على دراسة مناطق محددة في الزمن والمجال، والانفتاح على العلوم المساعدة للتاريخ، وتوسيع الوثائق التاريخية.

الكلمات المفتاحية: المجتمع المغربي، إينولتان، التاريخ الجهوي، المنوغرافيا

Abstract
Dr. Ahmed Al-Tawfiq's dissertation, entitled "Moroccan Society in the 19th Century AD, Inoltan 1850-1912," constitutes an example to follow for academic writings in the field of history in Morocco, given that the researcher created a boom in the field of historical writing that deals with marginalized areas in the historical approach, in addition to that the study The first building blocks were laid in the field of interest in regional history, based on the study of specific regions in time and field, openness to the auxiliary sciences of history, and the expansion of historical documents.

Keywords: Moroccan Society, Inoltan, Regional History, Monograph.

مقدمة

عرفت الدراسات التاريخية المغربية تطورا كميا ونوعيا، سواء على المستوى المنهجي والمعرفي، وبرز حس تاريخي بضرورة إعادة كتابة تاريخ جهوي وفق تصورات تقوم على اعتماد مصادر متنوعة سواء المكتوبة المنقوشة، المروية، وفي هذا الصدد تعتبر محاولة أحمد التوفيق نموذجا للكتابات الجهوية التي تناولت بالتحليل للقضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لمنطقة دمنات خلال النصف الثاني من ق 19م ومطلع ق 20م.

- ما هي الجوانب المعرفية لكتاب المجتمع المغربي خلال ق 19م؟

- ما تجليات الاختلالات المنهجية والمعرفية في هذا الكتاب؟

التعريف بالكاتب

-**أحمد التوفيق** : ولد في 22 يونيو سنة 1943 الأطلس الكبير قرب مدينة دمنات، تابع دراسته الابتدائية والثانوية بمراكش، حصل على الإجازة في الآداب تخصص "تاريخ" من جامعة الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 1968، وحصل على شهادة علم الآثار ودبلوم السلك الثالث من نفس الكلية، بدأ في التدريس سنة 1961، حيث شغل منصب أستاذ مساعد بشعبة التاريخ بكلية الآداب (الرباط) ما بين 1970 و 1976 بعدها اشتغل أستاذا محاضرا بين 1976 و 1979، عمل نائبا لعميد كلية الآداب بالرباط ما بين 1968 و1978، وفي سنة 1989 عين مديرا لمعهد الدراسات الإفريقية بنفس الجامعة، وتولى منصب محافظ للخزانة العامة بالرباط ما بين 1995 و 2002 ومنذ 2002 إلى الآن يشتغل منصب وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية.

مؤلفاتــه: له عدة دراسات في الآداب والتاريخ منها:

- المجتمع المغربي في القرن 19م (1850- 1912) سنة 1984.
- له أربع روايات: جارات أبي موسى (1997) شجيرة حناء وقمر (1998) السيل 1999 غريبة الحسين 2000.
- له كتب الإسلام والتنمية، يهود دمنات.
- حقق نصوص تراثية: كتاب التشوف إلى رجال التصوف، 1984 لابن الزيات التادلي.

التعريف بالكتـاب:

كتاب المجتمع المغربي خلال ق 19م (إينولتان 1850-1912) رسالة أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط يوم 13 يوليوز 1976 ونال به المؤلف الدلوم بميزة حسن جدا، تحت إشراف لجنة مكونة من الأساتذة محمد زنبير رئيساً، جرمان عياش مقررًا، إبراهيم بوطالب عضوًا.

يتألف الكتاب من حوالي 669 صفحة ويضم مقدمة وأربعة أقسام، وكل قسم يحتوي على 5 فصول وكل فصل يختمه بهامش واستنتاجات، إضافة فهرس المصادر والمراجع وأسماء الأشخاص والجماعات والأماكن وفهرس المواد.

اعتمد أحمد التوفيق في تأليف الكتاب على حوالي 68 مرجع ومصدر باللغة العربية و166 باللغة الأجنبية، وذكر حوالي 570 شخصية و377 من أسماء الجماعات و336 من أسماء الأماكن، 5 خرائط، 21 جدول إحصائي، 9 رسوم بيانية، 5 رسوم عادية.

واستهدف التوفيق في "رسالته أن يكشف إلى أي حد يمكن أن تنعكس جوانب من تلك الأزمة في منطقة دراسته التي تعمد أن يجعلها محدودة في الزمان ومحدودة أيضا في المكان، بحيث تنحصر في دراسة قبيلة واحدة هي إينولتان، إحدى قبائل الأطلس الكبير والتي تقع شرق مراكش"[1].

مضمـون الكتاب:

مقدمة: ص11 إلى ص 13

أشار الأستاذ إلى الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي كتوجه جديد في الدراسات التاريخية، وإزالة الغموض عن منطقة دمنات، خاصة خلال هذه الفترة (1/2 الثاني من ق 19م) والتي عرفت تكالبا استعماريا ضد المغرب، وأكد أحمد التوفيق على توظيفه الوثائق الكتابية من خلال تحري الدقة والمنهجية الصارمة بالنسبة للمعلومات الواردة في هذه الوثائق بدون إغفاله باقي المصادر خاصة الرواية الشفوية.

---

[1] عمر أفا ، تاريخ المغرب المعاصر دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ط.1، ص.22

القسم 1: إينولتان في الزمان والمكان (ص17- 172)

تضمن هذا القسم خمسة فصول:

الفصل الأول: مصادر ومنهج

الفصل الثاني: أخبار إينولتان إلى منتصف القرن 19م.

الفصل الثالث: موطن إينولتان.

الفصل الرابع: انتظام المجموعات داخل قبيلة إينولتان.

الفصل الخامس: الأحداث من منتصف القرن 19م إلى الغزو الفرنسي.

عالج الأستاذ أحمد التوفيق في هذا القسم عدة قضايا سواء من حيث المادة المصدرية التي اعتمدها وتحديد الإطار الجغرافي للمنطقة المدروسة وسيرورة كرونولوجية لتاريخ المنطقة إلى منتصف القرن 19م كما ذكر التنظيمات القبلية:

المـادة المعتمـدة:

استعان أحمد التوفيق بعدة مصادر كتابية سواء الوطنية والأجنبية، إضافة إلى الوثائق الكتابية سواء الرسمية مثل: سجل الترتيب العزيزي، سجل مستفاد دمنات... والخاصة (عقود النكاح، الطلاق، الملكية، مثل كناش القائد علي أو حدو والقائد الجيلالي الدمناتي...)، ثم التواريخ المحلية "كتب الغجدامي، المدني الكلاوي... وثائق ونوازل فقهية، مصادر أجنبية (كتب الرحالة، نصوص إثنوغرافية، تقارير أجنبية...)، كما استعان التوفيق بالرواية الشفوية.

تناول الكاتب في هذا القسم كذلك أخبار المنطقة، إلى منتصف القرن 19م، ونظرا لغياب الوثيقة المكتوبة بالنسبة للحقبة القديمة. التجأ الأستاذ إلى عدة علوم مثل الأركيولوجيا، الطوبونيميا، فقه اللغة... وخرج بفرضيات حول العلاقة التاريخية للمجال المدروس من خلال اسم "هسكورة" والتأكيد على وجود معتقدات سماوية وأخرى محلية قبل دخول الإسلام إلى المنطقة، ووضع أحمد التوفيق سيرورة كرونولوجية لتاريخ المنطقة بدءا من عهد الدولة الإدريسية، المرابطية، الموحدية، المرينية، السعدية، العلوية، واعتبر أن تاريخ المنطقة مرتبط بتاريخ المغرب وأنها جزء لا يتجزأ من الصراعات السياسية بين مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، كما أن قبائل المنطقة كانت تستغل فترة تدهور السلطة المركزية قصد الثورة على النظام الحاكم، أما مستوى النشاط الاقتصادي فشهدت المنطقة ازدهارا تجاريا ونشاطا زراعيا ورعويا، لكن خلال ق 16م إلى ق 19 حيث عرف الإنتاج تراجعا خاصة في ظل النزاعات القبلية حول الأرض، الماء، الرعي... وشهدت فترة ق 19م إلى غاية الغزو الفرنسي مواجهات قوية بين قبائل المنطقة والمخزن المغربي الذي حاول إخضاعها عبر تدعيم سلطة القواد مثل علي أو حدو والجيلالي الدمناتي ... حيث تمكن من تثبيت الأمن إلى غاية الدخول الاستعماري لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ المنطقة، وفي هذا القسم كذلك أشار أحمد التوفيق إلى موطن قبيلة إينولتان سواء من حيث حدودها ما بين قبائل فطواكة والسراغنة ونتيفة... وتضاريسها: قمم حادة، انحدار شديد أودية عميقة، أو مناخها، قاري وتساقطات غير منتظمة، غطاءها النباتي متنوع الأصناف، إضافة إلى توفر بعض المعادن مثل الحديد والملح...

كما تطرق الأستاذ إلى انتظام المجموعات داخل قبيلة إينولتان مستعينا بالدراسات التي تناولت مناطق أخرى مثل E.g ellner. R. Mon... J. Berque والتي قامت بتحليل بنية المجتمع المغربي، وأكد أحمد التوفيق أن إينولتان لا يمكن فصلها عن خصائص التنظيمات القبلية بالأطلس الكبير والمكونة من : إيغصان (العظام) وكل ...يتكون من اسر إضافة إلى الأفخاذ والأرباع والقبيلة واللف.

القسم 2: الحياة الاقتصادية لإينولتان ص 173 – 341

تضمن هذا القسم الفصول التالية:

- الفصل السادس: السكن والسكان
- الفصل السابع: الزراعة والرعي
- الفصل الثامن: الصناعة
- الفصل التاسع: التجارة والتجار

- الفصل العاشر: مستوى العيش

تطرق الأستاذ أحمد التوفيق في هذا القسم، مجموعة من القضايا ذات الصيغة الاقتصادية حيث تناول في البداية نمط السكن في منطقة دمنات، سواء من حيث طبيعته ومورفولوجيته، والمواد المستعملة في تشييده إضافة إلى أنواعه مثل تغرمت، تادارت، مع ذكر المعالم الأثرية للمنطقة من أسوار، مساجد، قصبات... كما حاول المؤلف تقدير عدد سكان المنطقة انطلاقا من مصادر متنوعة مثل حسن الوزان، دوفوكو... واعتمد على صيغ رياضية للتوصل إلى الرقم الحقيقي فتوصل إلى أن عدد إينولتان كان حوالي 27.000 نسمة سنة 1926، مؤكدا على بعض المميزات الديموغرافية للمنطقة المتمثلة في الزواج المبكر، ارتفاع الخصوبة، تعدد الزوجات...

وفي هذا القسم كذلك تناول أحمد التوفيق بنية اقتصاد المنطقة والتي تتمثل في:

- **الزراعة والوعي:**

حاول السكان تجاوز عوائق تقلص المساحة المزروعة وفقر التربة عبر تشجيع الإنتاج الزراعي قرب الأودية، ويمكن التمييز بين مدلولين أساسيين هما إيكران (الحقول المسقية) وأورتان (البساتين لإنتاج الخضر والفواكه)، وقدرت المساحة المزروعة ب 983 هكتار موزعة على منتوجات مثل الشعير، الذرة، أشجار الزيتون، الخضر، الفواكه، كما أن هناك عدد عوائق أمام تطور الإنتاج الزراعي والمتمثلة في طبيعة وسائل الإنتاج التقليدية في الخماسة، الشركة، الكراء، التويزة، ونظرا للطبيعة الطبغرافية للمنطقة فيعتبر قطاع الرعي قطاعا أساسيا، خاصة الماعز والغنم والبقر.

- **الصناعة:**

ينبني النشاط الصناعي على استغلال بعض الثروات الغابوية والمعدنية، حيث يتم تحويل بعض المواد في عين المكان وجزء آخر يتم بيعها موادا خامة، وتتوفر المنطقة على صناعات متنوعة لكنها تقليدية مثل:

صناعة الخشب والدوم: لصنع أدوات الإنتاج مثل المحراث، أدوات البناء.

صناعة المعادن: كالحديد، الفضة، النحاس.

- الخزف: الاستفادة من توفر إيدقي (الطين الأبيض) وتالاغت (الطين الأحمر).
- النسيج: توفر الصوف لصنع الجلاليب...
- الجلود: لصنع البلغ...
- صناعات أخرى مثل البناء، الزيتون، الماء...

- **التجارة:**

تطرق الأستاذ أحمد التوفيق لمسألة النقود من خلال تأكيده على أنها كانت إما ذهبية، فضية أو نحاسية، ومن خلال ارتباط الوضع النقدي للمنطقة بالتغيرات التي كان يمر منها المغرب خاصة الاتفاقيات مع الدول الأجنبية، وأعطى الكاتب معلومات متفرقة عن الأسعار والصرف بالمنطقة وظاهرة تزوير النقود، أما على مستوى المبادلات التجارية فأشار إلى أهمية المبادلات التجارية لمنطقة دمنات مع المناطق المجاورة خاصة مراكش مستفيدة من وضعيتها الجغرافية بين سهل الحوز وجبال الأطلس الكبير والأوسط، وما يوضح الرواج التجاري للمنطقة خلال ق 19م تعدد القيساريات، والأسواق التجارية والفنادق، رغم أن هذا الرواج يتأثر بالتقلبات التجارية على الصعيد الوطني، إضافة إلى الأوضاع السياسية الداخلية.

واختتم أحمد التوفيق هذا القسم بالإشارة إلى مسألة مستوى العيش لسكان المنطقة موضحا أن موارد العيش تتكون من الزراعة (الشعير، الذرة، التين، الرمان..) والرعي (الحليب، اللحوم...)، وأوضح إلى صعوبة دراسة كلفة المعيشة للسكان نظرا لتقلبات أسعار المواد في ارتباط بالظروف المناخية والعوامل السياسية، تناول في هذا الصدد مستوى التغذية المتكونة أساسا من الحبوب، القطاني، الخبز... ثم اللباس: المكون من جلاليب، أقمصة طويلة بالنسبة لسكان المدن، وخرق غير مخيطة لسكان الأرياف...، وأخيرا الوضع الصحي حيث انتشرت عدة أمراض وأوبئة، ويحاول السكان مواجهتها عبر طرق تقليدية مثل الكي، زيارة الأضرحة، الاستحمام في عيون، الأعشاب.

القسم 3: الحياة الاجتماعية ص 343-464

تضمن الفصول التالية:

الفصل 11: مجتمع تفاوت

الفصل 12: مجتمع تضامن وتعارض

الفصل 13: الحياة القانونية

الفصل 14: الحياة الدينية

الفصل 15: النمط الثقافي

تناول أحمد التوفيق في هذا القسم بنية المجتمع الإينولتاني وعلاقاته الاجتماعية، وأنماطه الثقافية ومعتقداته الدينية، وحياته القانونية، واعتمد على وثائق الترتيب لإبراز مسألة التراتب الاجتماعي، رغم بعض تحفظاته على الوثائق المخزنية، وانطلاقا من الضرائب والملكيات العقارية. يمكن تقسيم مجتمع إينولتان حسب التوفيق إلى أربع فئات مختلفة الامتيازات: فئة أولى (إختاران: الكبار) يمثلون نصف عشر السكان، فئة ثانية (عشر السكان)، فئة ثالثة: تعيش على الاكتفاء الذاتي (1/3 السكان)، فئة رابعة: تعاني من العجز الاقتصادي (1/2 السكان)، ومن التجليات الواضحة للفوارق الاجتماعية وجود طبقتين أساسيتين.

الأعيان (إيخاتارن): احتكار أراضي شاسعة، تسخير قوة إنتاجية مكونة من الرعاة، الخماسة، الإعفاءات الضريبية..

العامة: (السكان): يتم إجبارهم على كل التكاليف والكلف المخزنية، وطبقة العامة إما مالكون أو غير مالكون للأرض.

في هذا القسم كذلك تطرق التوفيق لمسألة العلاقات الاجتماعية بين سكان إينولتان، من خلال انتشار قيم التضامن والتآزر لاعتبارات اقتصادية، سياسية، دينية وجغرافية، ومن مظاهر التضامن:

- التضامن الاقتصادي: العمل الجماعي (تويزا).
- التضامن الديني: ضد الطوائف الأخرى خاصة يهود المنطقة.
- التضامن المورفولوجي: الانتماء إلى رقعة ترابية تحمل اسما مشتركا.
- التضامن القرابي: تاكمات (الأخوة)، إضافة إلى ارتباط أفخاذ إينولتان بعضها البعض بأفخاذ قبائل مجاورة في إطار نظام الأخوة المصطنعة "تاضا" الرضاع الجماعي.

لكن رغم هذا التكافل والتآزر فإن المنطقة عرفت لحظات من الصراع والتعارض لأسباب متعددة من بينها النزاعات حول منابع المياه، المراعي، الحدود الجغرافية، الاختلافات العقائدية...

أما من حيث الحياة القانونية فتطرق أحمد التوفيق إلى مسألة تنوع مصادر التشريعات القانونية في المنطقة، الشرع الإسلامي أساسه القرآن، السنة، ويمثله الفقهاء، القضاة، العدول... ثم القضاء المخزني ممثلا في الأحكام التي كان يجريها قائد دمنات، إضافة إلى مصدر أساسي ومهم هو الأعراف الجماعية لإقرار الصلح بين الأفراد أو بين القبائل لحل نزاعات مختلفة، وفق عرف يسمى "أزرف" وفي إطار ثقافة شفوية "تيعقيدين".

وفي الجانب الديني أكد أحمد التوفيق على تنوع المعتقدات الدينية: حيث انتشر الإسلام وشعائره بين السكان، لكن في المقابل آمن السكان بمعتقدات أخرى من بينها:

- التبرك بالأماكن: مثل أكوام الحجارة، عيون المياه، مغارة إيمي نيفري...
- الاعتقاد بالأرواح: كائنات غير بشرية مثل الجن التي تنتشر في أماكن مظلمة وموحشة.
- تبجيل الأشخاص: مثل الصلحاء، المتصوفة، المجاذيب.
- زيارة الأولياء والصلحاء والزوايا، هذه الأخيرة تلعب أدوار الاستسقاء، الاستشفاء، الاستطعام.
- دور المقدس في حياة السكان من خلال طبيعة الوظائف الاجتماعية والسياسية.

واختتم أحمد التوفيق هذا القسم بالإشارة إلى الحياة الثقافية بالمنطقة والتي تشمل نوعين من الثقافة:

- الثقافة الشعبية الشفوية: مثل الشعر، الخرافات، الأمثال، الأغاني (إزلان).

وتتميز بتنوع مواضيعها وتوارثها الشفوي وغياب التأريخ وعدم معرفة صاحبها.

- الثقافة الكتابية: تتم في الكتاتيب الملحقة بالمساجد والجوامع والمدارس، ويتم فيها تعليم القرآن، والروايات القرآنية والعلوم الفقهية واللغوية، وانتشرت المدارس في المنطقة على نطاق واسع، حيث أورد الغجدامي حوالي 12 مدرسة.

القسم4: إينولتان والدولة المغربية ص 465- 615

الفصل 16: المخزن وممثلوه المحليون
الفصل 17: العلاقة الجبائية والتسخيرية بين إينولتان والمخزن
الفصل 18: أثار العلاقة الجبائية والتسخيرية
الفصل 19: انتفاض إينولتان
الفصل 20: محاولات تغيير متأخر ة وانتفاضات فاشلة.

أشار أحمد التوفيق إلى أن إينولتان قبيلة من إيالة عامل السراغنة، وكان نفوذ المخزن في دمنات يقتصر على وجود خليفة العامل يتولى تحصيل الضرائب، وعرفت صلة المنطقة بالمخزن فترات متنوعة بين الخضوع المباشر لهذا الأخير، أو التبعية الإسمية وأحيانا أخرى التمرد ضد سلطة المخزن، ويتكون التمثيل المخزني من القائد مدعما بحامية عسكرية، ولم يكن يتقاضى رابت قار ورغم ذلك فإن تروائه كانت هامة، وتميزت حياته بالبذخ، مستمدا سلطته وقوته من ظهير تعيينه، وكان يسهر على توطيد سلطة المخزن، والنظر في أمور الرعية، وإجراء الأحكام، ويساعده كل من:
الشيوخ: على رأس كل فخذة شيخ يتمتع بمكانة أساسية، ويقدم المعلومات للقائد.
الأعوان: أداء بعض المهمات المختلفة للقائد والشيخ.
الأمناء: أخذ مستفاد الأسواق وواجبات الأبواب.
وفي هذا القسم كذلك أكد أحمد التوفيق أن منطقة إينولتان كانت تحت السيطرة المخزنية، عبر إجبار سكانها على منح عدة خدمات مجانية للمخزن في إطار ما يسمى بالكلف، ومن أهم تجليات السيطرة المخزنية:

- تجنيد أبناء المنطقة في الجيش المخزني.
- تقديم هدايا سلطان خاصة في المناسبات الدينية.
- فرض الضرائب على قبائل إينولتان سواء الشرعية (العشر، الزكاة) أو الغير شرعية (المكوس...) وتؤدى نقدا أو عينا.
- الذعائر: ضرائب تؤدى للقائد من طرف القبائل المخالفة لأوامره.
- التسخير: الأشغال غير المأجورة من طرف السكان للمخزن.

وأدى هذا الاستغلال المخزني إلى انعكاسات سلبية على الاقتصاد والمجتمع المحليين، حيث تم إفقار السكان، فأجبر مجموع من الطبقات الحرفية والتجارية إلى الهجرة نحو مناطق مجاورة مثل مراكش إضافة إلى هجرة الفلاحين نحو المدن، لكن الشيء الخطير هو ظهور تمردات القبائل، حيث كانت تستغل بعض فترات الأزمة السياسية بالمغرب، قصد نشر الفتن والفوضى، وأخطرها كانت سنة 1894 (وفاة الحسنI) حيث انتفضت قبائل إينولتان، وأجبروا قائد المنطقة على الاحتماء بزاوية تناغملت، وترجع عوامل هذه الانتفاضة إلى محاولة التخلص من الثقل الضريبي، تسخير الفلاحين في الإنتاج، إهدار الكرامة بحمل السكان على أنواع من المكاره.
كما تطرق التوفيق إلى المحاولات التي قام بها المخزن المغربي لإعادة الأمور إلى سابق عهدها عبر عودة قائد المنطقة وإعادة فرض الضرائب على السكان، لكن إصرار سكان المنطقة على التخلص من القيود الضريبية أدت إلى مقتل قائد المنطقة كانتقام على سياسية النصب والسلب ورغم هذه المحاولات المتكررة فإن سلطة المخزن بقيت قائمة إلى أن دخل الاستعمار الفرنسي.
اختتم أحمد التوفيق هذا الكتاب بمجموعة من الاستنتاجات وهي خلاصة عامة لما جاء في الكتاب.

التحليل والمناقشـة:

تعتبر دراسة أحمد التوفيق نموذجا للدراسات المنغرافية التي استطاعت وضع رؤية شمولية لمنطقة محددة مجاليًا (إينولتان)، وزمنيا (1850-1912)، حيث اعتمد على مجموعة من المصادر الأجنبية والوطنية إضافة إلى تركيزه بشكل كبير على الوثيقة المكتوبة وتحليل مضامينها واستخراج معطياتها، وما يبرر كذلك أهمية الكاتب كون أحمد التوفيق تخلص من إرث التاريخ الكلاسيكي القائم على التركيز على الأحداث السياسية والعسكرية، وركز اهتمامه بالميادين الاجتماعية والثقافية والدينية... كما استعان الكاتب بعدة علوم مساعدة مثل الطبونيميا، فقه اللغة، الرواية الشفوية، وتضمن الكتاب رسوم تخطيطية (5) مبيانات (9) خرائط (5).

أما من حيث الطبونيميا فبلغ عدد الأشخاص التي ورد ذكرهم في الدراسة حوالي (570) محليا، وطنيا وأجنبيا. أسماء الجماعات (377)، والأماكن (336).

وعلى مستوى العلوم المساعدة، انفتح التوفيق على العديد من العلوم المساعدة، باعتبار أن دراسة الحدث التاريخي يحتم على الباحث الاستعانة بكل ما من شأنه أن يساهم في الإحاطة الشاملة بهذا الحدث. وفي هذا السياق يرى محمد وقيدي أن " التاريخ علم يدرس وقائع الحياة الإنسانية وهي وقائع ناتجة عن الفعالية المختلفة المستويات للإنسان، إذ هي وقائع نفسية ومجتمعية ولغوية وسياسية واقتصادية وعلمية وتقنية وثقافية رمزية(...)ولذلك فتفسير هذه الوقائع لابد أن تتدخل فيه مناهج وتقنيات آتية من العلوم الأخرى."[2].

فكما كان لهذا الانفتاح على العلوم الأخرى فوائد جمة، ومنافع كثيرة، فقد كان ثمن قطف هذه الفوائد ثمينا حيث" أصبح التاريخ في مرحلة الثمانينات من القرن الماضي، أكثر تشعبا وتفككا من أي وقت مضى، فقد التاريخ خصوصياته ومعالمه، والمؤرخ لم يعد يشتغل في حقله، إذ ابتعد كثيرا عن ميدانه الأساسي، وضاع وسط العلوم الإنسانية."[3].

وفي هذا الصدد، وظف أحمد التوفيق عدة علوم مساعدة في أطروحاته، مثل: الجغرافيا، فقه اللغة، الاقتصاد، الرواية الشفوية، وغيرها.

ورغم الوفرة المعرفية والدقة المنهجية فإن الكتاب تشوبه بعض الثغرات.

- معرفيًا.
- منهجيًا:

-الغموض في تحديد المدة الزمنية المدروسة انطلاقا من العنوان (إلى غاية مطلع ق 20م).

-اعتماده المفرط على الوثيقة المكتوبة وتحليل مضامينها، لكن أحمد التوفيق لم يستعن بشكل معقول على باقي المصادر المادية واللامادية مثل البقايا الأثرية، النقوش، تحليل النقود...، كما أنه لم يعتمد على الذاكرة الجماعية والتراث الشفوي مثل الأشعار، والأغاني.. إلا بشكل ضعيف.

-أورد أماكن وأعلام كثيرة ومفاهيم جديدة، لكن لم يتم شرحها وتحليل مدلولها.

-مادة مصدرية ومرجعية كثيرة لكن انطلاقا من تحليل مضمون الكتاب يتبين أن معظمها لم يتم الاعتماد عليها.

-قلة الدعامات والوسائل الموازية خاصة الخرائط (فقط5)، وعدم اعتماده التام على الصور.

-عدم تنويع مجال البحث والدراسة والاقتصار فقط على المجال الجبلي قبيلة "إينولتان" رغم أن الجهة تتكون من مجالات مختلفة ومن قبائل مختلفة. وقد أشار في الكتاب إلى تبرير لهذا الاتجاه قائلا:" إن المجتمع المغربي يتكون من قبائل- مع استبعاد لكل مفهوم قدحي لكلمة قبيلة – لذلك اقتنعنا بأنه متى وقع

[2] محمد وقيدي، "التاريخ بين العلم والمنهج"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، مجلة أمل، العدد 15، ص.23.

[3] خالد طحطح، الكتابة التاريخية، دار توبقال للنشر، الرباط، 2012، ص 172.

الكشف عن تاريخ عدد منها بتحريات مجهرية، كان بمثابة فحص عدد من الخلايا في جسم ما للتعرف على نسيجه وتكوينه"[4].

-إن الكتاب ركز على التاريخ الاجتماعي كتوجه جديد في دراسة التاريخ والذي يعطي أهمية كبرى للهوامش أكثر من اهتمامه بالمركز وبالحدث السياسي وقد أشار بشكل صريح إلى هذا التوجه قائلا:" وقد نص العنوان قصدا على التاريخ الاجتماعي لإبراز الاهتمام الموجه إلى نواحي من حياة السكان لطالما أغفلتها الدراسات التاريخية المغربية أو قصرت في تحليلها"[5]. لكن رغم ذلك لم يهمل الاعتماد على الوثائق المخزنية باعتبارها الوثائق المكتوبة المتوفرة آنذاك والتي كانت أهدافها جبائية أو سياسية في غالب الأحيان.

-يمكن أن نلمس نوعا من التناقض في منهج اشتغال المؤلف على مستوى الاستجوابات التي قام بها مباشرة مع الساكنة، فأحيانا يقدم نفسه مصحوبا بالمقدم والشيخ داخل الدوار ومن ثمة ارتباطه في أذهان الناس بالسلطة أو المخزن: "إن الاجتماعات كانت تعقد حولنا، وكان يستدعي إليها من تظن عندهم مطالبنا في دار مقدم أو شيخ أو مستضيف من مطلق أفراد الجماعة"[6] وهذا ما يجعله يجد صعوبة في التواصل التلقائي مع المبحوثين وقد عبر عن ذلك صراحة في قوله:" لم نستطع أن نسلك مسلك جاك بيرك بالتخلي تماما عن منهج المستخبر المشبوه فيه، وعن لوائح الأسئلة وندع الأحداث تأتينا بعفوية وصدفة"[7]، ونجده أحيانا أخرى يتحدث عن استجواب في ظروف مثالية قائلا:" ولقد تأتت لنا بعض الجلسات المثالية، نسي فيها مخبرونا تشككاتهم، فكانوا يندفعون أحيانا في مناقشات محتدمة حول حدث من أحداث الماضي"[8].

-في الكتاب أيضا إشارة إلى الديانات القديمة في الجهة من خلال الاعتماد على الآثار المنقوشة على الصخور في المناطق الجبلية بآيت بوولي عند قدم جبل "رات" أو "غات" هذه النقوش التي تشير إلى أن أهل المنطقة كانوا يعبدون الطبيعة، كما اعتمد على مراجع أجنبية أيضا والتي تؤول التاريخ الديني للمنطقة أهمها كتاب ج. غاتفوس في:" اليهود والمسيحيون في درعة قبل الإسلام" والذي يشير إلى أن أبناء كوش، وهو الجد الأكبر لقبائل هسكورة، كانوا من المجوس.

-لم يغفل المؤلف الكتابات الأجنبية حول المنطقة، والتي رغم طابعها الإيديولوجي الكولونيالي، وقد توفر أحيانا مصدرا مهما للمعلومة، حيث أنه إذا تم التعامل معها بنوع من الحذر فيمكن الاعتماد عليها لاستخراج صورة مقربة من الواقع نظرا لاعتمادها على تقارير عسكرية واستخباراتية من عين المكان. والتي كانت تتنوع بين كتب الرحلات مثل، لويس دي مارمول، الحسن الوزان، هوكر، شارل دوفوكو، جوزيف طومسون، ادموند دوتي، دوسيكو نزاك، أو نصوص اثنوغرافية مثل "نصوص بربرية بلهجة الأطلس المغربي" لمؤلفه سعيد بوليفة والتي اعتمد فيها المؤلف على أعمال إ. لاوست "كلمات وأشياء بربرية" والتي قام انجزها هذا الأخير بمنطقة تنانت، وكذلك كتاب "حكايات بربرية من المغرب" لنفس المؤلف بالإضافة إلى كتاب "ممتع الإسماع" لمؤلفه المهدي الفاسي والذي ترجمه شخص يسمى "البوكمازي".

ووظف أيضا الكتابات والتواريخ المحلية5:

-"التسلي" للغجدامي، حيث أعطى ملخصا لهذا الكتاب بعد أن عثر على نسخته الأصلية لدى إحدى الأسر. بالإضافة مطبوع آخر هو "القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع" لأحمد بن إبراهيم.

-وكان للنازلة الفقهية أيضا دور أساسي في البيبليوغرافيا التي اعتمدها أحمد التوفيق، إذ أن هذه الأخيرة رغم اختلافها مضمونا عن موضوع التاريخ إلا أنها قد تشكل مصدرا أساسيا للمعلومة بما تتضمنه من زمان النازلة ومكانها وسياقها مما سيمكنها من إعطاءنا إشارات وإضاءات عن البنيات الاجتماعية أو القانونية لهذا المجتمع في فترة تاريخية معينة فاعتمد فتاوي" الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية" لمحمد بن أحمد بن ناصر الدرعي (1603-1674).

---

[4] - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19م (إينولتان 1850-1912م)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2011، ط.3، ص. 9

[5] - المرجع نفسه، ص 9

[6] - المرجع نفسه، ص 41

[7] - المرجع نفسه، ص 41

[8] - المرجع نفسه، ص 42

-"مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال" لصاحبها محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن أوكيك (الكيكي) والتي عثر عليها في خزانة السيد أحمد بن إبراهيم الدمناتي.

خاتمة:

وخلاصة القول إن كتاب" المجتمع المغربي خلال القرن 19م" لأحمد التوفيق، يعتبر بحق من الكتابات الأولى في التاريخ الجهوي، التي استطاعت تحليل بنية المجتمع الإينولتاني وخصائصه ومكوناته، وفق منهجية علمية مضبوطة تعتمد على تحليل دقيق للوثيقة التاريخية، مع الاستعانة بمناهج بعض العلوم خاصة فقه اللغة، والطبونيميا.

كما استطاعت هذه الدراسة تجاوز إرث الكتابات الكلاسيكية، عبر تناول مواضيع اجتماعية، اقتصادية، دينية، في قالب منهجي مضبوط.

المراجع

1. عمر أفا، تاريخ المغرب المعاصر دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ط.1
2. أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19م (إينولتان 1850-1912م)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2011، ط.3
3. محمد وقيدي، "التاريخ بين العلم والمنهج"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، مجلة أمل، العدد 15
4. خالد طحطح، الكتابة التاريخية، دار توبقال للنشر، الرباط، 2012